زهير علاف

الدروب

ـ ١ ـ

شجرة صغيرة ترثها عن أبيك .. مصدر عيشك وعيش أولادك .. تنظر اليها بود ومحبة .. تحملها بين يديك بعناية، تحفر الارض ، تدفن جذورها الدقيقة جذرا جذرا .. وترد التراب . وتنفض يديك ، ثم ترفع رأسك الى السماء ، وتتمتم بكلمات تنضح بالرجاء . وأنت تعلم ان السماء لا تمطر ذهبا .

ويمر عليك زمن ... وأنت تنتظر زهرة تجود بها شجيرتك . ولكنك تفاجأ بذبولها .. « الارض رملية ، ولا تصلح لمثل هذه الاشجار » هكذا قال الفاهمون . تذرف دمعات حرّى .. تبللت قدماك الحافيتان . حال لون وجهك . والشمس محرقة ، والدروب ممتدة ..

حملت شجرتك على ظهرك ، وأنت تدري ان البكاء لا يفيد .

ـ ٢ ـ

وفي اليوم التالي ، تحمل فأسك بيمناك ، تنكش الارض ، ثم تدفن الجذور من جديد ، وتهيل التراب بعد أن تخلطه بسماد جيد .. كنت تنظر الى قدميك المشققتين، وتمسّ معدتك الخاوية ، فيحدوك أمل شديد ، وتبتسم . ثم ترفع رأسك الى السماء وتنادي بقلب جريح : « يا رب ! » .

وأنت تعلم ان السماء لا تمطر فضة .

ولم يمض زمن ، حتى مالت الاوراق الى الذبول ، فهالك الامر ..

« يحتاج هذا النوع من الشجر الى سقي من ماء المطر » هكذا يقول العارفون .

والسماء ضنينة ، لا تبضّ بقطرة ، تعوض دموعك عن المطر ، فتسقي التراب عندما تقتلع الشجرة بأظافرك اليابسة . ثم تحمل شجرتك من جديد ، وتنظر الى السماء معاتبا ، وأنت تعلم ان العتاب لا يفيد .

ـ ٣ ـ

أنت مصمم على تنمية شجرتك ؟ هي مصدر رزقك الوحيد ، بل هي أملك الذي تجري خلفه لاهثا . أنت تنسى ان شجرتك هذه واحدة من الآلاف المدفونة في الغابات ، مظهرها حي ، ولكنها تئن تحت سياط الموت الرهيبة ..

تقرر هذه المرة أن تغرس شجرتك في احدى غرفك .. وفي وسط الغرفة ستنمو ، وستمد أغصانها ...

ولم يمض زمن حتى انحنى جذعها ، وتكسرت بقية غصونها الهزيلة . وعندما تسأل العارفين يقولون لك « انها تحتاج الى الشمس » .

أنت تحسّ بخَور في قوتك ، وبانهيار في بصرك ، ثم تمد يدك الى التراب لتحفره بأظافرك الرحيمة ، فيفاجئك الدود الذي قضم عروق الشجرة ، وبدأ يتصاعد الى جذعها ..

ـ ٤ ـ

تحمل شجرتك وتدفنها في حفرة .. ثم ترفع رأسك الى السماء لتبكي بعينين مخضلتين وأنت تعلم ان السماء لا تمطر ذهبا ، وان الدموع لا تفيد .

وهران